الفاشية
بين النظرية والتطبيق

4 طريقة بديلة
An alternative method

---

obeikan.com

وبعد سرد موجز لهذه الفاشية كحركة وكنظام للحكم ، فهذا يدل على أنه من الممكن بناء نظرية بديلة للفاشية. وسوف نحتاج إلى تعريف ملامحها .

وفيما يلى الخطوط العريضة لوضع مثل تلك النظرية:

أولا : يجب أن تكون نظرية أكثر صلابة وحسما ، أي أنه ليس من المناسب استخدام الأساليب والأفكار الفاشية التى جاء بها المفكرون واعتبارها جزءا من محاولة فهم الفاشية كقوة تاريخية.

ثانيا : إن أي نظرية جديدة يجب أن تكون أيضا «تفسيرية» بمعنى : أنه لا يكفي وصف الفاشية في المقام الأول بناءا على مجموعة من الأفكار المستخرجة من التجربة البشرية ، ولكن تلك الأفكار فى حد ذاتها يجب أن تفسر بشكل أوضح. فمثلا إذا قال «روجر غريفين» أن الفاشية تعتبر شكل من أشكال القومية ، فإن هذه القومية أيضا يجب تفسيرها بشكل دقيق.

وفي نهاية المطاف ، فإنه يمكن القول بأنه لا يمكن فهم الأفكار الفاشية الا مرتبطة بنظرية مجتمعية. فأي نموذج من الفاشية يتطلب عوامل مجتمعية داخلية أدت الى ظهور تلك الفاشية ، وساعدت الأحزاب الفاشية على النمو.

وعندما يتعلق الأمر بوضع مثل هذه النظرية ، فإن الأفكار الماركسية الكلاسيكية تكون مفيدة بشكل خاص. و من ناحية الماركسية الكلاسيكية ، أود أن أشير إلى ما قام بوصفه «إسحق دويتشر» بأنه 'هيئة الفكر» التى وضعها ماركس وانجلز ، ومعاصريهم من قبل ، وتناولها من بعدهم كل من ... لينين ، تروتسكي ، و روزا لوكسمبورغ.

إن التقليد الماركسي يمثل قيمة خاصة فى فهم الفاشية ، وذلك لثلاثة أسباب رئيسية. أولا ، إن الماركسية أمر مرتبط كليا بالفاشية : فالماركسيون وحدهم هم

الذين قدموا معارضة شاملة لمعظم الأحزاب الفاشية.

ثانيا ، أن الماركسية تفسر الفاشية : فهى تفسر نمو الفاشية فى نطاق أوسع من خلال نظرية تسعى لشرح مجمل العلاقات الاجتماعية في ظل الرأسمالية. ولأن الماركسية تهدف الى شرح كل شيء عن المجتمع ، فالنظريات الماركسية تتسم بحساباتها الدقيقة. ومن المعروف جيدا أن المواضيع الماركسية والفئات التفسيرية يمكن فهمها على نطاق واسع : فالماركسيون لا يمكنهم إخفاء أي تناقضات في تحليلهم لفئات جديدة مثل الفاشية ، أو من التذرع بكون تلك الحالات تمثل إستثناءا. وأخيرا ،وبما أن الماركسية مجهزة بناءا على طرق جدلية ، لذلك فإن هذا التجهيز الفريد للماركسية يتيح لها شرح التناقضات فى قلب الفاشية نفسها.

وحتى هذه اللحظة ، لا توجد نظرية أكثر شيوعا بين مؤرخي الفاشية من نظرية الماركسية .ولكن السبب في ذلك يأتى من فكرة خاطئة للعديد من المؤرخين الغير ماركسيين بأن تعريف الماركسيين يمكنه أن يفسر الأفكار الفاشية بشكل فريد فقط عند ربطه بالحقائق الاقتصادية .وهكذا ، فقد جادل روبرت فليتشر أن النظرية الماركسية عن الفاشية هى التي تحدد العلاقة السببية للفاشية في المقام الأول في تطورها داخل القاعدة« الاقتصادية »للمجتمع .وبالمثل ، وقد وصف المؤرخ اليهودي رينزو دي فيليس تعريفات للماركسية مثل تلك التي ترى أن «الفاشية كمنتج للمجتمع الرأسمالي ، وكرد فعل معادي للبروليتاريا» . وذهب بعض الماركسيين مع هذه الفكرة بأن تفسيرات الماركسية تعتمد بكل بساطة على النواحى الاقتصادية . ويقول «هوارد سيمسون »: إن السمة المميزة للنظريات الماركسية عن الفاشية هو محاولتها لتفسير الفاشية كظاهرة رأسمالية .ويزعم مارتن كوك بأن السمة المركزية فى جميع النظريات الاشتراكية عن الفاشية هو الإصرار على العلاقة

الوثيقة بين الفاشية والصناعة.

وهناك عنصر من الحقيقة في هذا ، لكن ما هى إلا حقيقة جزئية .فالقول بأن الماركسيين قاموا بتعريف الفاشية فقط من حيث صلتها بالرأسمالية ، لا يعني أن جميع النظريات الماركسية ترى أن الفاشية مجرد انعكاس للمصالح الاقتصادية لطبقة اقتصادية واحدة أو فئة اجتماعية معينة. ولكن هناك العديد من المؤرخين الذين قاموا بتوضيح النظريات الماركسية عن الفاشية مع الإشارة إلى عوامل لا ترتبط بالنواحى الاقتصادية. فقط ، وتشمل هذه العوامل «علم النفس» ، كما هو الحال بالنسبة لمنهجية «مدرسة فرانكفورت »، أو عوامل تتناول وجود حزب ثوري من عدمه، كما في تفسير «جيوفاني زيبوردى » ، أو نجاح أو فشل الطبقة الحاكمة في الترويج لأيديولوجيتها المهيمنة ، كما هو الحال مع أنطونيو غرامشي.

وبعبارة أخرى ، تبدأ النظريات الماركسية بتفسير الفاشية من خلال المجتمعات الرأسمالية التي نشأت فيها تلك الفاشية ، ومن ثم الاستمرار من خلال شرح الفاشية فى الإشارة إلى التناقضات داخل الرأسمالية كنظام للحكم الطبقي .وهكذا ، فمن السهل أن نرى بعض المشاكل مع أي تعريف للماركسية . فالرأسمالية هي فئة اقتصادية ، وهى تمثل شكل من أشكال المجتمع يميزها عن غيرها من المجتمعات ، وهى في المقام الأول لها علاقة قوية بالإنتاج .

ويمكن أيضا تمييز الاقتصاد الرأسمالي عن طريق ديناميكيته التراكمية ، والمنافسة بين كتل رأس المال. وإزدهار الرأسمالية و نمو الأرباح ، ولكن هذا النظام أيضا في حالة من الانحدار. إن الفجوة بين زيادة سرعة الإنتاج وبطء الزيادات في الأجور تمثل وقود للأزمات الاقتصادية حيث تؤدى إلى النقص فى الاستهلاك والإفراط في الإنتاج. كما أن الميل إلى توظيف عمال أقل من أي وقت مضى للعمل على الآلات

يعني إثقال لكاهل النظام عن طريق زيادة التكاليف ، وبالتالي يترتب على ذلك انخفاض فى معدل الربح.

وبقدر ما يصف الماركسيون الرأسمالية على شكل سلسلة من العلاقات الاجتماعية ، فيترتب على ذلك أن الفاشية تتصل بواحدة أو أكثر من الفئات الرئيسية في المجتمع ، وهما الطبقة العاملة والطبقة الحاكمة. وبقدر ما يصف الماركسيون الرأسمالية من حيث «دينامية أو حيوية التراكم» ، فيترتب على ذلك انه يمكن تفسير الفاشية من حيث الآثار الاجتماعية المترتبة على هذا التراكم : ويمكن رؤية الفاشية باعتبارها نتاج الغربة ، أو نتيجة للأزمات الاقتصادية. و يرى الماركسيين ضرورة الربط بين التفاعل الحيوي بين هذه النواحى التى تمثل القاعدة الاقتصادية وبين الظروف الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية. فعلى سبيل المثال ، وفي إطار تعريف الماركسية ، فإن التعامل مع الفكر لوحده لوصف الحالة الاقتصادية ، سيكون بمثابة مرآة مشوهة ، لأنه سيعكس التجربة الاقتصادية لطبقة معينة ، ومن ثم يقوم بممارسات لإعادة تشكيلها. إن العلاقات الاقتصادية لا تحدد الوعي ، ولكنها تضع له شروطا ، ومن تم تتأثر تلك الشروط ذات نفسها به. ويترتب على ذلك أن أي تعريف ماركسي عن الفاشية كفكر يجب أن يشتمل على بعض الوعي بالتناقضات المحتملة بين اقتصاديات الرأسمالية والاستنتاجات السياسية التي رسمها الأفراد الذين يعيشون في ظل هذا النظام.

ومن المهم أيضا أن أقول شيئا عن دور التعريفات الواردة في الأسلوب الماركسي. فبالنسبة لماركس ، فقد صمم نظرية «تجريدية بسيطة » لزيادة مستوى الفهم. وكان لا بد من إعادة تشكيل تلك التجريدية، وليس مجرد مطابقتها مع الواقع. وفي كتابات كارل ماركس لوضع الخطوط العريضة لنقد الاقتصاد السياسي

المسمى« جروندريس Grundrisse » ، انتقد ماركس الاقتصاد السياسي لمعالجته ومعاملته للتجريدية على أنها أشياء جامدة ، وكان ينبغي من باب اولى أن تفهم على أنها عمليات فيقول : إذا تم استخلاص شكل محدد من أشكال رأس المال بعيدا ، وتم التشديد فقط على المحتوى... فسينظر إلى رأس المال على انه «شيء» ، وليس «علاقة» ... في حين ، أن رأس المال فى الواقع ليس «علاقة بسيطة» ، ولكنه عملية يكون هو فيها دائما «رأس المال» في مختلف اللحظات.

وقام« هنريك غروسمان» ، وهو عضو في مدرسة فرانكفورت الماركسية المساوية ، بتطوير هذه الحجة في عام ١٩٤٠ ، مصرا على أن التعريف الماركسي معني «بمضمون العملية» ، وليس «بشكلها الثابت» ويقول: إن ماركس يرفض الرأي القائل بأن المعرفة تتمثل في «التصنيف» و«التعريف» ، وأن مهمة العلم هي ببساطة «اكتشاف المعيار العقلاني للتصنيف». وهذا هو النهج الثابت للكلاسيكيين ، و لذين ينظرون الى الظواهر الاجتماعية على أنها «هياكل غير قابلة للتغيير» . ومن ناحية أخرى ، فإن ماركس هو المتحدث باسم نهج « الدينامية الجديدة». هذا هو السبب في أن الظواهر الاجتماعية ، في رأيه ، هي في الواقع لا يمكن تعريفها على حد قوله . وأنه لا يوجد عناصر «ثابتة »أو «أبدية » أو« مواصفات» ولكن فى نظره أن تلك الظواهر الاجتماعية « قابلة للتغيير المستمر».

واقترح غروسمان أن التفسيرات الأكثر فعالية للظواهر الاجتماعية لا بد لها من التطور. وينبغي أن التقاط ديناميكية العملية ، بنفس الشكل الذى تطورت فيه عبر التاريخ : فالتعريف يجب أن يحدد السمات السطحية من شيء في أي لحظة أو فترة زمنية ،و بالتالي يحول هذه الصفات إلى شيء «دائم وثابت». ولفهم هذه الأمور لا بد من معرفة كيف تم توارثها ، والتحولات المتوالية لها ، وبالتالي يمكن وقتها

الكشف عن جوهرها ،وأفكارها.

في حين أن أسس دراسات الفاشية تحتوى على قائمة من الأشكال النمطية للفاشية ، وأفضل النظريات الماركسية عن الفاشية، هى تلك التى كانت أكثر اهتماما بالفاشية من ناحية «الممارسة الحيوية» أو الديناميكية لها - و حاول الكثير فهم الفاشية من حيث الطرق التى تطورت وتغيرت الفاشية من خلالها. وقد وضع الماركسيون تعريفات عن الفاشية ردا على صعود الفاشية واتخذوا تلك التعريفات بناءا على تحليل ما قامت به الفاشية فعلا.

- **الماركسيون قبل الفاشية** Marxists before fascism

وحتى قبل وجود الفاشيين ، كان هناك أفراد ومنظمات تتعاطى بلغة ومفرادات الحركات الفاشية التى جاءت فى وقت لاحق. فقد كان هناك السلطويون والمحافظون والإمبرياليون وأعداء للسامية ، جميعهم كانوا هناك قبل ظهور الفاشيين. لذلك فليس من المستغرب أن أسست النظرية الماركسية عن الفاشية في سلسلة من الكتابات التي تسبق تاريخ صعود الأحزاب الفاشية. وكانت المواضيع الرئيسية التى تتناول أمورا مثل مفهوم الاشتراكية الرجعية أو فكرة وجود حكم «برجوازي بدون برجوازيين» ، كلها كانت جزء من المفردات الماركسية حتى قبل تواجد الأحزاب الفاشية. وبهذه الطريقة ، يمكن القول : إنه كانت هناك نظرية ماركسية عن الفاشية حتى قبل وجود الفاشية. ويمكن رؤية عناصر هذه النظرية في أربعة مصادر : ماركس وإنجلز فى كتابهم «البيان الشيوعي» ،ثم ماركس فى كتابه «الثامن عشر من برومير(برومير تسمية لأحد الشهور) لـ «لويس بونابرت» ، وأيضا جاك لندن في «الكعب الحديدى وإمبريالية لينين».

وتمت كتابة البيان الشيوعي في عام ١٨٤٨ ، بتكليف من مجمع الدول الشيوعية

والذي كتبه ماركس ، واعتبرت تلك الدول أن البيان يعبر عن « حركة جديدة ثورية ودولية للاشتراكية. وفي أعقاب خطة العمل الخاصة ب « ماركس»، والتى قام بها في وقت سابق من قبل إنجلز ، والتى شملت قسمين يعتبران ذى أهمية. فالقسم الأول ، تضمن الخطوط العريضة الكاملة للماركسيين عبر التاريخ ، وقدم فى هذا القسم مثالا على الطريقة والتي سوف تستخدم في وقت لاحق من الماركسيين لتفسير الفاشية. أما القسم الثاني ذو الصلة ، فهو مقطع قصير فى الجزء الثلث من البيان ، والذي قام فيه كل من ماركس وإنجلز بتحليل مختلف منافسيهم الإشتراكيين. ولا سيما استخدامهما تعبيرا وصفيا لفئة اسموها «فئة الاشتراكية الرجعية» ، وكانوا يقصدون بها الأيديولوجيات السياسية التي سعت إلى ربط البروليتاريا بتلك الفئات الاشتراكية من خلال عمليات رأسمالية أدت إلى تدميرهم فى النهاية . ثم ما قاموا بوصفه ب « تراجع الأرستقراطيين الاقطاعيين» ، وهم الفئة التى سعت إلى ربط مصالحها بالطبقة العاملة وبالتالي فقد أدى ذلك إلى ظهور ما يسمى بـ «الاشتراكية الإقطاعية» . وبالمثل ، فإن تراجع المنتجين الصغار، والبرجوازية الصغيرة ، ولدت بعد ذلك ما يسمى بـ «البرجوازية الصغيرة» أو «الاشتراكية الألمانية».

وهذا المفهوم للاشتراكية الرجعية والنظريات سيكون ذا صلة وثيقة في وقت لاحق بالفاشية لعدة أسباب. أولا ، لأنه يؤكد على الربط بين الأفكار السياسية والمصالح الاقتصادية. وفي وقت سابق ، في البيان الشيوعي ، صور كل من ماركس وإنجلز الأيديولوجية باعتبارها مشروطة بمجموع العلاقات في المجتمع ، وهناك تساءل حول «ما الذى يبرهن عليه تاريخ الأفكار هذا» ، هل يدل على أن طبيعة التغيير في الإنتاج الفكري تتناسب دوما كلما تغير الإنتاج المادي ؟

و عندما قام كل من ماركس وإنجلز بتعريف منافسيهم الاشتراكيين باسم «إقطاعيين» ، أو «برجوازيين» ، أو «صغار البرجوازيين» ، ذهبوا أبعد من ذلك ، واقترحوا أنه يمكن أن إيجاد « علاقة أوثق بين الأفكار والاقتصاد». فمضمون كلامهم أنه يمكن النظر إلى الأيديولوجيات باعتبارها انعكاسا « لوضع فئة اجتماعية معينة» ، وتكون أيديولوجيات تختص بتلك الفئة أو الطبقة (أيديولوجية طبقية) . وباستخدام هذا المنطق بعناية ، فإنه يمكن التوصل لنتائج ذات قيمة.

وشمل بيان كل من ماركس وإنجلز أوصاف خاصة « بالبرجوازية الصغرى» (البرجوازية الصغيرة تمثل الطبقة المتوسطة الدنيا من أصحاب المتاجر والوظائف الكتابية وغيرها) ، فإن تلك الطبقة الاجتماعية من صغار البرجوازيين(كما يسميهم معظم الماركسيين)هم الذين كانوا في وقت لاحق يوفرون الجزء الأكبر من عضوية العديد من الأحزاب الفاشية:

وفي البلدان التي أصبحت فيها الحضارة الحديثة كاملة النمو ، فقد تم تشكيل فئة جديدة من البرجوازية الصغرى بها والتى تراوحت بين البروليتاريا والبرجوازية و هى تقوم بتجديد نفسها أكثر من أي وقت مضى كجزء مكمل ومتمم «للمجتمع البرجوازي». وأفراد هذه الفئة (صغار البرجوازيين) ، يتحركون باستمرار أسفل أقدام البروليتاريا بفعل المنافسة وتطور الصناعة الحديثة ، وأصبح الوقت يقترب مؤذنا باختفاء هذه الطبقة تماما من المجتمع الحديث.

وهناك نقطة أخرى تتعلق بوصف ماركس وإنجلز لأفكار معينة خاصة «بالرجعية». وهم يعنون أن هذه الأفكار كانت تسعى إلى إعادة إنشاء العلاقات الاجتماعية التي سادت في فترة سابقة. وعلى سبيل المثال «فالاشتراكية البرجوازية الصغيرة » سعت إلى إعادة إنشاء «أسطورية ذهبية» تتعلق بالملكيات الصغيرة :

فهذه الطبقة إما أنها تطمح إلى استعادة وسائل الإنتاج القديمة ، وعلاقات لملكية القديمة والمجتمع القديم ، أو إلى وسائل حديثة للإنتاج والتبادل ، في إطار علاقات الملكية القديمة أيضا . وفي كلتا الحالتين ، فإنها تمثل الرجعية والمثالية على حد سواء.

و هنا ، فإن ما قدمه كل من ماركس وإنجلز فى وصفهم للأفكار الرجعية التي تدفقت بالضرورة نتيجة لتراجع وضع البرجوازية الصغيرة. ، وقامت تلك الأفكار لرجعية في وقت لاحق بوصف الفاشية وصفا دقيقا.

وقد كانت الفاشية في القرن العشرين أكثر انتقائية رجعية من ذلك. فقد كانت لفاشية في القرن العشرين مثل البرجوازية الصغيرة في القرن التاسع عشر ، ودعا لفاشيون للعودة إلى عصر «السلام الطبقى» ، ولكن خلافا لما فعله أسلافهم ، كانوا سعداءًا بالحفاظ على أدوات المجتمع الحديث ،سواءًا كان ذلك أسلحة ، أو فى مجال لصناعة وكذلك الطرق السريعة. وعموما ، ومع ذلك ، فإنه يبقى صحيحا القول أنهم (ماركس وإنجلز) كانوا رجعيين في وصفهم لـ«الاشتراكية» وحصلوا على دعم أكبر في أوساط البرجوازية الصغيرة ، و تناول ماركس وإنجلز جانبين من لتعريف الماركسي للفاشية والذان تكررا في وقت لاحق.

وتمت الكتابة عن الانقلاب الذى قام به لويس بونابرت فى الثامن عشر من شهر برومير في عام ١٨٥٢ (وكان شهر برومير الشهر الثاني في التقويم الجمهوري لفرنسي. وأصل تسميته كلمة «بروم» brume وهى كلمة فرنسية تعنى «الضباب » الذي غالبا ما يحدث في فرنسا...) والاحتفال بالانقلاب الذى قام به لويس بونابرت ، و نابليون الثالث في وقت لاحق. وكان فوز بونابرت استجابة لثورات ١٨٤٨ ، التي كان قد تنبأ البيان الشيوعي بها ، وهو البيان الذى شارك في وضعه

كل من ماركس وإنجلز.

وكما قيل عن سقوط لويس فيليب أنه كان بداية لموجة كبيرة من النضال الثوري ، فقد كان نجاح بونابرت يمثل نهاية تلك الموجة. و من وجهة نظر ماركس ومن خلال التوقعات التى قام بها في وقت سابق ، فقد كان انتصار بونابارت انتصارا يتطلب بعض التفسير. وذلك ربما نتيجة لاختلاف الظروف التي تم بمقتضاها الكتابة عنه ، والتحليل العميق لأحداث « الثامن عشر من شهر برومير» يعتبر في عداد المفقودين عند إعداد البيان الشيوعي : لأنه يصور البونابرتية كحركة ، وقوة اجتماعية قامت بتغيير شكل العلاقات الاجتماعية ، وكذلك وبسبب أن البونابرتية قامت بالسيطرة على الدولة. كان ماركس يصفها على أنها حركة مضادة للثورة ، حتى بعد أن حققت سلطة الدولة.

وقد وجد هؤلاء الماركسيون أنه من المفيد استخدام أحداث « برومير الثامن عشر» لشرح جوانب الفاشية لعدة أسباب. أولها أن البونابرتية تعطى مثالا على كيفيه استيلاء قوة اجتماعية ، لا تمثل إلا مجرد طبقة صغيرة داخل المجتمع على سلطة الدولة. ولقد نتج هذا عن سلسلة من التطورات داخل المجتمع الفرنسي. وعلى رأس تلك التطورات وجود طبقة اجتماعية صغيرة أطلق عليها « رعاع البروليتاريا أوlumpenproletariat ، وتلك الطبقة فى الأساس كانت تتألف من أصحاب بيوت الدعارة ، الحمالين ، الأدباء.. والمتسولين. وكان هؤلاء الناس لا مصلحة لهم في العملية الإنتاجية ولم يكونوا اجتماعيين إلا بقدر ضئيل ، وكانت النتيجة أن أيدت تلك الطبقة بونابرت ، «قائد رعاع البروليتاريا»، حيث كان هو الشخصية التى تجسد شكواهم . أما العامل الثاني فتمثل فى عدم قدرة الفلاحين على اتخاذ النموذج نفسه فى تولى الحكم بأنفسهم، أما السواد الأعظم من الأمة الفرنسية فقد كانت مجرد

إضافة لجموع متجانسة ، تتشكل مثل «بطاطا في كيس»

ولذلك قام الفلاحين بدعم البونابرتية لأنهم لا يستطيعون أن يحكموا بأنفسهم ، تلك البونابارتية التي قدمت لهم أيديولوجية لحكومة قوية وغير محدودة. ومع ذلك ، فقد ارتبط العامل الرئيسي فى هذا الشأن بالعلاقة بين فئتين كانتا تحاولان الوصول إلى السلطة للهيمنة على المجتمع الفرنسي وهما : «الطبقة العاملة» و «الطبقة البرجوازية». وكان فشل الطبقة العاملة في المدن بالاستيلاء على السلطة خلال التمرد الثاني من يونيو ١٨٤٨ ، يعني الهزيمة لها وأن «الجمهورية البرجوازية قد انتصرت». ومع ذلك ، فقد كانت البرجوازية تمشى على استحياء للاستيلاء على السلطة. وكان حجم الثورات التى كانت فى يونيو / حزيران ، قد أعطى مؤشرا للبرجوازية بأن هناك خطرا كبيرا للغاية عليها حتى لو كانت حائزة للحكم بنفسها : "لقد كانت للبرجوازية بصيرة حقيقية بشأن حقيقة أن جميع الأسلحة التي كانت تـورها وتستخدمها ضد الإقطاع قد انقلبت عليها الآن».

وأوضح ماركس أن من المفارقات أن البرجوازية وهى الطبقة التي كانت تستخدم أساليب ثورية لقلب نظام الأرستقراطية الإقطاعية ، يمكنها بعد ذلك أن تعارض نفس الأساليب التى استخدمتها من قبل عندما قامت الطبقة العاملة باستخدامها فى ثورتها المضادة ضد تلك البرجوازية . مما يدل على أن البرجوازية مستعدة لفعل أي شيء ، حتى إمكانية أن تقوم بالحكم بنفسها ، وذلك من أجل الحيلولة دون سيادة الطبقة العاملة .

ولقد قام ماركس بوصف البونابرتية في السلطة كشكل من أشكال المجتمع الرأسمالي الذي مثلت فيه البرجوازية «الطبقة الحاكمة اقتصاديا » ، ولكنها(أي البرجوازية) لم يكن لها تمثيل وسط النخبة السياسية الحاكمة. حيث إن هذا التوازن

بين القوى الطبقية مكن الدولة من أن تكون فى حالة تبدو فيها وكأنها مستقلة تماما. ولوهلة ،كان يبدو أن الدولة لم تعمل لمصلحة أي فئة ، وأنها كنظام حكم ، تقوم بما يمليه عليها صالح المجتمع ككل. وفي الواقع ، كانت الدولة قادرة على لعب هذا الدور الوحيد فقط نتيجة لتوازن قوى معينة فى ذلك الوقت بمعنى أن بونابرت كان يتصرف للحفاظ على المصالح الاقتصادية للطبقة الرأسمالية : من خلال حماية قوتها المادية ، وتجديد القوة السياسية لتلك الطبقة. وكانت النتيجة حالة أصبح فيها المجتمع الفرنسي لا يختلف كثيرا عن المجتمعات الرأسمالية الأخرى ، ولم تشكل وضعا استثنائيا ، فقط رأسمالية داخل دولة أقوى. وما كان ماركس يحاول استكشافه بعد ذلك هو فكرة المجتمع الرأسمالي الذي لا تكون فيه للبرجوازية سيطرة على السلطة السياسية فيه. وينظر إلى الطبقة الرأسمالية بأنها ترخى قبضتها طوعا عن مقاليد النظام السياسي. حيث إن حسابات الطبقة الرأسمالية تلك تعتمد على مبدأها الذى ينص على أنه : «من أجل الحفاظ على قوتها الاجتماعية، فلا مانع من كسر السلطة السياسية لتلك الطبقة الرأسمالية».

وفي الوقت نفسه ، فقد وصف هذا الامتياز للطبقة الرأسمالية على أنه مؤقت وجزئي. وكما ذكرت من قبل ، فالكتابة عن الثامن عشر من شهر برومير في عام ١٨٥٢ ، كان يصف انضمام بونابرت بشكل خاص إلى السلطة. وعندما تم إنشاء هذا النظام ، قام بما فى وسعه من اجل تشجيع نمو الصناعة. وتم تعيين مستشارين التكنوقراط ، بما في ذلك « ميشيل كيفالير» الذي كان المرشح الثاني الغير منتخب في البرلمان الفرنسي. وجمع «لو كروسو» بين رئاسة الجمهورية وفيلق يدعى «ليجيسلاتيف législatif (وكان هذا الفيلق جزءا من البرلمان الفرنسي خلال الثورة الفرنسية وما بعدها. وهو أيضا مصطلح عام الفرنسية يستخدم للإشارة إلى

أي هيئة تشريعية).

و بين ١٨٥١ و ١٨٦٩ ، زاد الانتاج الصناعي بنسبة ٥٠ في المائة ، كما زادت الصادرات بنسبة ١٥٠ في المائة. ونما عالم جديد من السكك الحديدية ، ومناجم الفحم والمتاجر ، والموصوفة بشكل دقيق في روايات «إميل زولا Émile Zola .

ولقد استفادت البرجوازية من المجتمع الرأسمالي ، لكنها لم يكن لها أى سلطة سياسية من تلك التي أوكلت للنظام ، وقدمت البونابرتية نموذجا يمكن مقارنته مع تجربة الفاشية الإيطالية والألمانية في السلطة. في كل حالة من هذه الحالات في وقت لاحق ، كان السياسيون الذين استولوا على السلطة قد وعدوا بوضع حد لشرور الرأسمالية ، ولكنهم فى نفس الوقت يدعون أن سلطة الدولة تقوم على أساس التحالف مع الطبقة الرأسمالية. ومرة أخرى ، وفي تجربة الفاشية الإيطالية والألمانية في السلطة في وقت لاحق ، قامت تلك الأحزاب الفاشية بإلقاء الخطابات المعادية للرأسمالية لإبقائها خارج السلطة ، في حين كانت السلطة تقوم بدعم قوي لشركات الأعمال الكبرى ،وبذلك كانت المجتمعات الرأسمالية تضم الرأسماليين الذين لم يكن لديهم سيطرة على السلطة السياسية ، وسيادة البرجوازية دون أن يكون هناك أى إشراف نشط من تلك البرجوازية.

وكتاب جاك لندن المسمى «الكعب الحديدى» ، والذى تم نشره في عام ١٩٠٧ ، كان كتابا مختلفا تماما سواء عن البيان الشيوعي أو انقلاب الثامن عشر من برومير ، ولم يكن الكتاب ماركسيا من النوع الكلاسيكي ، ولكن كان فى شكل رواية ، وكتب في أسلوب مذكرات التي وصفت الأحداث بعد عدة قرون من حدوثها. وتكمن الفائدة من هذه الرواية في المقام الأول في حقيقة أن أعدادا كبيرة من الماركسيين قد رأوا فيها نبوءة تمهد للفاشية.

كما يمكن لهذا أن يقال : إن تلك الرواية تتضمن نظرية شبه ماركسية صلبة عن الفاشية. فالقصة تحوى موجة من انتصارات الطبقة العاملة ، والدعاية الناجحة والاضرابات والأصوات الجماهيرية الكبيرة في الانتخابات العامة. هذه الانتصارات تلتها فترة من ردود فعل معادية للبروليتاريا ، والتى سميت «بالكعب الحديدى». في الكتاب ، وقد استمرت ردود الفعل لهذه الانتصارات لعدة قرون ، قبل زوالها في نهاية المطاف.

ويرد وصف «الكعب الحديدى » أولا كحركة ثم كنظام. وبدأت الحركة في اجتماع لناد خاص يدعى «فيلوماثز 'Philomaths' ، حيث كان جميع أعضائه من رجال الأعمال الكبار. وترد فلسفة هذه الحركة في الكلمة التي ألقاها السيد «ويكسون Wickson الذى كان يرأس هذا النادى، ردا على الخطاب الذي ألقاه «إرنست » زعيم الاشتراكيين الثوريين فى ذلك الوقت ومضمونها كما يلى :

يجب أن نصيغ ردنا بعبارات من الرصاص. فنحن في السلطة. ولا أحد ينكر ذلك. وبمقتضى هذا الحكم ، فنحن سنبقى في السلطة... وسنقوم بسحق الثوريين تحت كعوب أقدامنا ، وسنقوم بالسير على وجوههم. إن العالم لنا ، ونحن الأسياد ، ويجب أن نظل كذلك.

والمعنى الضمني لهذا النموذج يمثل شكلا من أشكال رد الفعل الفاشي ، على الرغم من أنه يجب استخدام هذا المصطلح بطريقة محددة للغاية. فحكومة الأقلية ليست رجعية ، بالمعنى الذى استخدمه ماركس في كتابته للبيان الشيوعي ، فالأقلية لا ترغب في استعادة علاقات ما قبل الرأسمالية في الإنتاج. ومع ذلك ، فهي تعد رجعية بمعنى آخر ،وذلك لأنها ترغب في تأسيس الهيمنة المطلقة للدولة على الطبقة العاملة ، لأن العاملين هم الأغلبية في هذا المجتمع ، وهم أكبر شريحة فى المجتمع

ككل. والشكل الوحيد من أشكال المقاومة التي كان من الممكن أن تقوم بها تلك الأقلية هى نوع من حرب العصابات السرية. و لقد تم التركيز على سحق الطبقة العاملة باعتبارها طبقة جيدة التنظيم .

وهناك نوعان من المشاكل فى هذا الكتاب الذى يعد كمثال للنظرية الماركسية عن الفاشية. أولا ، على الرغم من أن المؤرخ « لندن» قد عمل وأعطى المحاضرات عن الحركة الاشتراكية ، إلا أنه لا يبدو أنه استفاض فى شرح الماركسية أو حتى الاشتراكية. ويقول جورج أورويل : « لهذا السبب ، فإن لندن يمكنه التنبؤ بالفاشية؛ لأنه لديه نزعه فاشية في نفسه شخصيا.

فلم تكن لحركة الكعب الحديدى حنكة سياسية توازى تلك الخاصة بالماركسية الكلاسيكية. فعلى سبيل المثال ، في أحد فصول الكتاب ، كان والد البطلة يسعى من خلال كتابه لإثبات أن جميع الأكاديميين يتقاضون أجورهم من الرأسماليين. وردا على ذلك قام الرأسماليون بتدمير كتاب الأب ، وحرموه من وظيفته وأزالوا ممتلكاته.

وفى رأيي أن هذا الفصل غير مقنع ، لأنه ينظر إلى الرأسماليين من خلال عمل فردى لشخص واحد. ولم تكن ل «جاك لندن» أدنى فكرة فى أن السيطرة السياسية لا يمكن أن تكون خفية أبدا!

ثانيا ، لم تكن لـ « جاك لندن» نفسه أي خبرة عن أى حركة أو نظام فاشي فعلي . ونتيجة لذلك ، فالحركة شبه الفاشية التى يصورها جاك لندن ، مثل الكعب الحديدى» ، هى على عكس الأحزاب الفاشية الفعلية التى ظهرت فى الأعوام ١٩٢٠ ، ١٩٣ ، ١٩٨٠ و ١٩٩٠ من نواح كثيرة. فالشخصيات الرئيسية في الكعب الحديدى هم «أقلية» من أغنى رجال الأعمال : «والذين يعتقدون أنهم وحدهم من

يمكنهم الحفاظ على الحضارة ... وأن بدونهم ، ستعم الفوضى وستتقهقر الإنسانية الى الوراء في ظلمات من البدائية التي ظهرت منها تلك الإنسانية فى الأساس وبشكل مؤلم.

وتلك الأقلية كانت تحث على العنف ضد الطبقات الأخرى داخل المجتمع: فقد قامت أول الأمر بتدمير أصحاب الأعمال الصغيرة ، ثم المزارعين ، ثم الطبقة العاملة. وهذا يشير إلى مشكلة واضحة لم يستطع الكعب الحديدى الإجابة عليها. وتستند الحركة الرجعية التى يصفها جاك لندن على مصالح فئة واحدة فقط ،وهى «الطبقة الرأسمالية» ، والتي كان عبارة عن طبقة اجتماعية صغيرة. هذه الحركة الرجعية كانت قادرة على خوض الحروب الاجتماعية بنجاح ضد كل طبقة أخرى من المجتمع.

وفي كتاب جاك لندن ، نجد أن الطبقة الرأسمالية الصغيرة قادرة على بناء حركة رجعية ضخمة ، والتي تريد أن تقضي على حياة الملايين . ونجد أن جاك لندن غير قادر على الإجابة على تلك المشكلة من واقع الحياة : فإذا كانت الحركة الرجعية لا تعبر حتى عن مظالم هذه الطبقات التي تشكل الجزء الأكبر من السكان في ذلك المجتمع ، اذا فكيف تكون تلك الأقلية من الرأسماليين قادرة على تشكيل أغلبية مستعدة لخوض «حرب طبقية» والتي من الواضح أنها ستكون حربا ضد مصالحها فى النهاية؟

وكان « لإمبريالية لينين » تأثير كبير على كثير من الكتاب الماركسين الذين جاؤوا في وقت لاحق للكتابة ضد الفاشية. وتلك النصوص التي سبق ذكرها لا تضع توقعات سليمه فيما يخص الفاشية ، كما أنها لم تتضمن تفسيرًا لكيفية التصرف وسلوكيات الحركات الرجعية آنذاك. وهى نصوص متفاوتة فى أهميتها. وتتناول

الإمبريالية فى تلك الكتابات مسألة لماذا كان يمكن للرأسمالية أن تظهر في شكل نماذج وصور مختلفة. وكانت الرأسمالية في أيام ماركس لا تزال نظاما محليا تتكون من مجموعه من العلاقات الاجتماعية ، وكانت تقتصر على بلدان مثل بريطانيا وأميركا وأجزاء من شمال أوروبا. ولكنها بحلول عام ١٩٠٠ ، تحولت لتصبح «نظاما عالميا». وعلق العديد من الماركسيين على هذا التحول ، بما في ذلك «روزا لوكسمبورغ» ، و«رودولف هيلفردينغ» ، و«نيكولاي بوخارين». ولقد رأى لينين هدفا واحدا من أعماله التى قام بها ويقول «إنها لإعطاء تصورا عن الخطوط العريضة للمناقشات الشائعه التي كانت تجرى بالفعل فى ذلك الوقت .وفي قلب تحليلات لينين كانت تكمن فكرة أن الرأسمالية قد دخلت «مرحلة جديدة» ، وهي مرحلة « نظام أعلى» . ففي هذه الفترة الجديدة ، قام رأس المال بتحويل نفسه على نحو متزايد نحو «احتكار رأس المال» : فالإمبريالية تصبح هى نفسها الرأسمالية في هذه المرحلة من التنمية التي تكتسب فيها هيمنة الاحتكارات والرأسمال المالي أهمية واضحة ؛ ويتم تقسيم جميع أقاليم العالم بين القوى الرأسمالية الكبيرة.

إن أهمية الحديث عن الإمبريالية يأتى بسبب أنها كانت تربط بين الشكل الجديد للاقتصاد العالمي بالتغييرات السياسية في عهد الحرب العالمية الأولى. فقد أدى الاحتكار الاقتصادي الى ردود فعل سياسية. وقد تميزت الإمبريالية الرأسمالية بالسعي للسيطرة بدلا من السعي إلى الحرية ، واستغلال عدد متزايد من الدول لصغيرة أو الضعيفة من قبل مجموعة صغيرة جدا من الدول الغنية أو الأقوى... ".

وكانت حجة لينين تتمثل فى أن نمو الرأسمالية قد أدى إلى خلق وضع جديد جاوزت فيه ضغوط المنافسة الصعيد الفردي للشركات ، لتعرب بشكل متزايد عن الكفاح المسلح بين الدول المسلحة. وترتب على ذلك أن العديد من المزايا التي

كانت في وقت لاحق ترتبط بالفاشية ، بما في ذلك من ميزة كون الدولة قوية ، والقومية والحرب ، قد أصبحت في الواقع هي القاعدة الأساسية للمجتمع الرأسمالي. وكان رأس المال الامبريالي أكثر وحشية وأكثر دموية من «رؤوس الأموال الخاصة» التي سبقتها. وكانت نتائجها أن كانت هناك مساحة أقل من الديمقراطية ، وفرصة أكبر للحرب.

وفي الفترة من الأعوام مابين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ اعتقد الكثير من الماركسيين أن العمليات المذكورة في «إمبريالية لينين» تفسر السبب وراء كون هذا النظام الرأسمالي الاقتصادي قادرا على أن يعيش جنبا إلى جنب بسهولة مع الحكم السياسي الفاشي.